

في مصر أزمة أمهات ! الأطفال في مصر وأمريكا

قرأت مرة في إحدى الصحف المصرية تحت عنوان : " طفل ضال " أن طفلا في السابعة أو الثامنة من العمر عثر عليه البوليس ضالا في إحدى الطرقات وهو يبكي وقد عجز عن الإرشاد إلى أهله أو مسكنه .

وقرأت مرة في إحدى الصحف أن بضعة أطفال في أمريكا تتراوح أعمارهم بين السابعة والعاشر تقيوا عن دور أهلهم الذين أنفقوا إدارة الشرطة عنهم ؛ وقد ضبطتهم دوريات الميناء وهم يستقلون زورقا بخاريا على بعد أميال من الشاطئ ، ولما سئلوا عن سبب وجودهم هناك قرروا أنهم اعتزموا القيام برحلة بحرية إلى أوروبا . وقد وجدت معهم بوصلة وبعض الخرائط البحرية !!!

والفرق بين الحادنين هو الفرق بين ثقافة الأطفال في مصر وفي أمريكا وبين نوع شخصياتهم هنا وهناك . وهو الفرق كذلك بين شخصية الشعب المصري وشخصية الشعب الأمريكي ، فما الأطفال إلا رجال المستقبل وما هؤلاء الرجال إلا الشعب في صورة أفراد .

ففي الحادث الأول ناهج الجهل والقصور والضعف ، وفي الحادث الثاني ناهج المعرفة والطموح والاعتداد ، وهذه هي عدة الصراع العالمي في هذه الأيام ، وللنشأة الأولى دخل كبير في غرس هذه الصفات أو تلك في نفوس الأطفال ، حيث تؤثر في شبابهم ورجولتهم وكهولتهم ، وتجعلهم إما أدوات سليمة قوية للنضال وإما حطاما متداعيا لا يقوى على مواجهة الحياة المعقدة المعقدة .

وهذا الطفل الضال الذي لا يستطيع الإرشاد عن أهله وعنوانه ، والذي يبكي ويخاف من كل غريب ، والذي هو من باب أولى لا يستطيع سؤال أحد عن الطريق أو لا يلجأ إلى رجل البوليس ليستعين به على الخروج من ورطته ، هو نفسه الشاب المتزوي عن المجتمع الذي يغادر المدرسة باحثا عن وظيفة حكومية معروفة سهلة فإذا لم يظفر بها لم يجد أمامه متسعا لأية مخاطرة — بل تجربة — في العمل الحر ، وبطبيعة الحال لا يفكر في أية مغامرة خارج بلاده التي يخاف فراقها ولو لبضعة كيلومترات !

وقبل أن نلوم هذا الشاب على فقدان روح الثقة بالنفس وروح التجربة والمغامرة يجب أن نلتفت إلى ذلك الطفل الذى نشأ فى عزلة عقلية ونفسية ، والذى لم يدرّب فى طفولته أى تدريب على الخروج من بيته أو حارته إلا وهو معتمد على سواء ، فإذا فارقه هذا المرشد المعين ضل عن مسكنه واضطرب وخاف فلم يستطع الإرشاد إلى أهله !

وهذه ثمرة لازمة لوضع المنزل المصرى ولعاداتنا الخاطئة فى تربية الأطفال لا إلى طبيعة الذكاء المصرى الذى لا يقل عن مثله فى العالم . فكلنا يعرف ذلك البيت المصرى الذى ينشأ فيه الأطفال جاهلين بكل ما حولهم ، يسألون عن الأشياء المحيطة بهم فيزجرون وينهرون ويحاولون مرافقة الكبار فى أثناء خروجهم فيتهرب منهم هؤلاء الكبار : الأب لأنه ذاهب إلى المقهى وليس لديه من الفراغ ما يقضيه مع طفله بمرفه فيه بعض المسالك القريبة من الدار ويدرس معه جغرافية المنزل والمنطقة . والأم لأنها ذاهبة إلى حفلة أو زيارة ولا يصح أن يرافقها طفلها ، وقد قضت الوقت السابق لتلك الحفلة أو هذه الزيارة أمام المرأة تترين وتبرج لتكون فتنة الطريق أو فتنة الحفل وليصنع الطفل ما يشاء .

فإذا أطاع الأطفال غريزة حب الاستطلاع وأرادوا الخروج منفردين تكاثف جميع أفراد الأسرة على تحويفهم من الخروج تارة من " العسكرية " وتارة من " الحكيم " وتارة من " العفريت " حتى ليخيل لهؤلاء المساكين أن الشوارع تعج بالمخاوف ، وأنهم متى تجاوزوا عتبة الدار تحطفتهم الشياطين أو ذهبوا إلى عالم غريب لا مخلص لهم منه ولا فرار .

وبعض الآباء والأمهات يدللون أطفالهم تدليلاً سخيفاً فيحسبونهم لعباً لا أحياء . يخافون عليهم من النسيم يحرج حدودهم والحرير يدمى بنانهم ، ولو استطاعوا أن يضعوهم فى علب وورق شفاف وأن يعرضوهم لمجرد الزينة لكان ذلك خيراً فى نظرهم من تركهم يتحركون وينشطون !

يريد الطفل أن يذاعب القطة أو الكلب فيمنع خوفاً عليه من أظفارها . يهيم أن يطل من النافذة فتصرخ الأم خيفة أن يسقط أو يتعرض لتيار الهواء . يأخذ فى صعود السلم أو النزول فتولول خيفة أن يسقط فتشتم أضلاعه . يسقط على الأرض فى أثناء قفزه أو جريه فتصيح فى ذعر يتوهم معه الطفل أنه أصيب إصابة بالغة فيأخذ هو نفسه فى البكاء . تقطع له هى اللقمة وتناولها الأدماء بحجة المحافظة على نظافته فينشأ وهو لا يعرف كيف ! كل أو كيف يستخدم أدوات المائدة .

وهكذا يتعلم ذلك الطفل المدلل الخوف والارتباك كما يتعلم الرخاوة والكسل والتواكل ، فإذا شب ظل طفلاً فى طباعه وعقليته ، وعجز عن مواجهة الحياة الصاخبة التى تتطلب الجهد والكفاح .

والمحصن لأعظم الجليل. ولكن أى تعليم هو الذى يهيئ الفتاة أن تنهض بذلك الواجب الخطير وأن تخرج لنا أطفالا تملؤهم روح الثقة بالنفس والمرانة على الحياة والتدربة على النضال والتضلع الى الآفاق البعيدة ؟

ليس هو التعليم الحالى بكله كيد !

فقصارى هذا التعليم أن يخرج لنا فتاة تصلح لديوان كما يصح الفتى ، ولكن الشاب الذى يتعلم هذا التعليم لا يصح لرعاية البيت وتكوين الأطفال فكذلك الفتاة التى تنشأ نشأته وتتعلم تعليمه وتسلك طريقه فى الحياة .

وممن مبتنون ببعض السفسطائيين الذين ينقلون وضع المسألة فى تعليم المرأة من الدائرة العملية إلى مناقشات أفلاطونية . فيتساءلون : هل يتساوى الفتى والفتاة فى الحقوق ؟ وإذا كان لا بد من المساواة بينهما فلم يحال بينهما وبين الاشتراك معه فى التعليم ؟ وكيف يحال بينهما وبين جميع الدراسات وقددلت التجربة على أنها لا تقل عنده ذكاء ولا تختلف فى الامتحانات بل تسبقه فى أحيان كثيرة ؟

والمسألة ليست أن الفتاة تصلح لمثل هذا التعليم أو لا تصلح ، ولا مسألة أنها صاحبة حق من الوجهة النظرية فى سلوك أى طريق تعليمى أو مسلوقة الحقوق .

المسألة مسألة وظيفة يؤديها كل فرد للمجتمع ، ومسألة استخدام أحسن الموهب لأداء هذه الوظيفة فى كل ظروف من الظروف .

ولا يجادل أحد فى أن حاجة البيت للأُم المتعلمة أشد بكثير من حاجة الديوان والمكتب للوظيفة والحماية ، ولا يجادل أحد فى أن الأُم المتعلمة تستطيع أن تقدم للمجتمع فى شخص أطفالا خدمات أجل وأنفع مما لا يقاس — مما تستطيع أن تقدمه لهذا المجتمع بالخطب والمحاضرات وأعمال الديوان وعضوية البرلمان .

ومن البنية أن تفهم بعض الفتيات — بتأثير إيماء خاطئ من الكتاب السفسطائيين — أن العمل الخارجى أجل شأنًا وأكثر نفعا وأدعى إلى الاحترام من سياسة الملكة الصغيرة فى العرش الدافئ ، فذلك الفهم فوق أنه تشويه للفطرة الإنسانية ، مؤذ للمرأة كأمراة ومسقط لفضائل الجنس التى تدركها الفطرة السليمة .

يجب أن يكون مفهوما أن خروج المرأة للعمل ضرورة واضطرار ، وإقصاء لها عن مكانها الطبيعى الذى تستطيع خدمة جنسها وخدمة المجتمع فيه خدمة صادقة ، فإذا لم تكن الظروف الاقتصادية أو الحربية تقتضى هذا الإقصاء — بل هذا النقي — فمن الحق التطوع به لمجرد الجرى وراء مناقشات نظرية لا تنطق على الواقع ولا على الوضع الاقتصادى للأمة .

حق ، ولكننا ننظر إليها من ناحية حاجة المجتمع ، ومن ناحية المقدرة الإنتاجية لكل فرد واستخدام أفضل المواهب لإبراز هذه المقدرة .

والشاب يستطيع النهوض بالعمل الخارجى دون معاونة الفتاة — فى الطور الحالى من تطورها الاجتماعى والاقتصادى — بل يضيق به مجال العمل ، ولا تستطيع الدولة أن تنفع بجهود كل الشبان . بينما هذا الشاب عاجز عن النهوض بأعباء البيت وتكوين الجيل الجديد . فيكون من الإسراف إذن فى وظائف الشعب التى تشبه وظائف الجسم الواحد أن يتكالب جميع الأعضاء على أداء وظيفة معينة ، وأن تبقى وظائف أخرى لا يؤديها عضو من الأعضاء ولا سيما حين يستقر فى الأذهان أن الأمومة ليست أقل شأنًا ولا أحقر مقامًا من العمل فى المكتب والديوان .

هذا كلام واضح ، وله نتائج معينة ، أقربها إلى التناول أن يكون تعليم الفتاة — وبخاصة بنات الطبقتين الفقيرة والمتوسطة — مما يساعدها على أداء وظيفتها كاملة لا أن يشدّها إلى مسلك آخر من مسالك الحياة .

والاتجاه العقلى له قيمته فى الاتجاه النفسى ، فالفتاة التى تدرس دراسة خاصة تجمع بين الثقافة العامة والثقافة النسوية ، تنهيا نفسها للحياة المتزلية ، وتستعد وظائفها للعمل فى عيش الأمومة بخلاف الفتاة التى تنشأ نشأة الفتى فتذلل غرائزها وتتحوّل اتجاهاتها وترى فى البيت قيودًا وسجنًا ، كما ترى الكثيرات الآن ممن يفتنن بالآراء الرخيصة والاتجاهات الجالحة والسفسطة العابثة .

فأما إذا اقتضت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية أن تزيد الفتيات المتعلّقات على حاجة البيت حينئذ يجب أن يخرجن إلى ميدان العمل ، لأن اعتراضهن فى هذه الحالة يكون إسرارًا فى قوى الشعب وتبذيرًا فى وظائفه ، كما هو الحال الآن لو هجرن البيوت وهى فى أشد الحاجة إلى الأم المتعلمة ، أو لم يهجرنها ولكنهن لم يتهيأن لها بثقافة خاصة كما هو واقع كذلك !

فعلى الدولة أن تنظم استخدام الثروة الأدبية بأن تخصص كل عضو للعمل الذى يحسن أدائه ولا تدع الجميع يتكاثرون فى ميدان ضيق ، والميادين الأخرى خاوية . وعلى جماعة الكتاب أن يضعوا فى الميزان حقائق الواقع وحالة المجتمع قبل أن ينساقوا فى نظريات جوفاء لا تصلح فى الحيوى من الأمور .

إن فى مصر أزمة "أمهات" حقيقية ، على كثرة من فيها من "الوالدات" "الأمومة" وظيفة أكبر بما لا يقاس من وظيفة "الولادة" ولن تعالج هذه الأزمة إلا بأن تعمر البيوت

الماضي والجيل الحاضر . جيل لا يفضل أطفاله في الطرقات على بعد مائة متر من عتبة الدار ولا يعجزون عن الإرشاد إلى أهلهم أو عنوانهم فيستسلمون للبكاء . جيل مثقف ثقافة منزلية قوى الشخصية ، يغامر على الأقل في رحلة من قلب مدينة القاهرة إلى الإهرامات !!!

مصر في حاجة إلى "أمهات" قبل حاجتها إلى محاميات وموظفات ونائبات في البرلمان هذه هي الصيحة التي يجب أن تصل إلى كل أذن من آذان أولئك الذين يزعمون أنهم يعرفون التقدم الاجتماعي ، وهم بعيدون كل البعد عن روح البحث الاجتماعي الذي يقوم على دراسة الواقع واستشارة الأرقام قبل أن يقوم على الجدل النظري والإغراق في الأوهام.

شعر عبد الله بن الزبير بضيق الحصار عند ما خرج على عبد الملك بن مروان فنقصد إلى أمه وهي عجوز قد حطمتها الشيخوخة فقال : "يا أماء . خذني الناس حتى أهلك وولدي . ولم يبق معي الا اليسير ومن لا دفع له أكثر من صبر ساعة من النهار . وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا . فما رأيك ؟ "

ف قالت : " الله الله يا بني . ان كنت تعلم أنك على حق تدعو اليه فامض عليه ، ولا تمكن من رقبته غلمان بني أمية فيلعوا بك . وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت . أهلك نفسك ومن معك . وإن قلت : إني كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي فليس هذا مثل الأحرار ولا من فيه خير . كم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن ما يقع بك يا ابن الزبير . والله لضربة بالسيف في عز أحب إلى من ضربة السوط في ذل " .